

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس 02-06 : تفسير الآيات 16 - 37 ،
معجزة ولادة سيدنا يحيى عليه السلام .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ : 18-12-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين،
اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا
وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن
يستمعون القول فيتنبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

معجزة ولادة يحيى مقدمة لمعجزة ولادة عيسى عليهما السلام :

أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس الثاني من سورة مريم .

القصة الأولى في هذه السورة قصة سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة
والسلام ، هذه القصة تُعدُّ من حيث إن ولادة سيدنا يحيى كانت بإعجازٍ دون إعجاز سيدنا عيسى
، فكان الله سبحانه وتعالى هيئاًنا من معجزةٍ إلى معجزةٍ ، سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا أفضل
الصلاة والسلام كان قد بلغ من الكبر عتياً ، وكانت امرأته عاقراً ، ومع ذلك وهبه الله يحيى عليه
السلام لبيان وتأكيد كمال قدرة الله عزَّ وجل ، لكن القصة التالية في نظر البشر أعظم إعجازاً من
الأولى ، لأن هذا النبي العظيم سيدنا عيسى عليه السلام ولدَ من غير أبٍ إطلاقاً ، والحقيقة
الناصعة هي أن كلا الحالتين عند الله سواء ، لأن أمره ..

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)

سورة يس

على الله سبحانه وتعالى كلا الحالين سواء ، ولكن كتهيئةٍ وتمهيدٍ لأذهاننا جاءت
قصة سيدنا زكريا قبل قصة سيدنا عيسى ، إذ إنَّ الأولى تمهيدٌ للثانية .

وقد بيَّنتُ لكم بفضل الله عزَّ وجل كيف أن الإنسان لا يملك إلا الطلب ، ما كان من
هذا النبي العظيم إلا أن طلبَ ولياً يرثه في الدعوة إلى الله ، فكان أن لُجى الله طلبه ، لذلك جاء
في مطلع هذه السورة : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ هذه رحمة الله عزَّ وجل ، ليس لك إلا
أن تطلب بصدقٍ وإخلاصٍ وعلى الله الباقي ، وأكدْتُ لكم أن المعني هو نحن ، لأن هذا النبي

الكريم مضى ، وهو في جنّات القُرْبَات ، ولكننا نحن الذين نقرأ هذا القرآن نحن المعنيّون بهذه القصة ، فكلما ضاقت بنا الأمور ، وكلما رغبتنا بشيء يُعَدُّ من رحمة الله عزّ وجل ، ليس لنا إلا أن ندعو الله عزّ وجل مخلصين صادقين حتى تكون الرحمة ، لأن النبي الكريم سيدنا زكريا يقول : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي ما دعوتك في الماضي دعوةً وحرمتي من الإجابة .

قصة مريم دليل على كمال قدرة الله عز وجل :

ربنا سبحانه وتعالى يُحَدِّثُنَا عن مريم ابنة عمران ، يقول : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ .. أي واذكر يا محمد لقومك ، واذكر لهم هذه القصة التي جاءت في الكتاب ، واذكر يا محمد لقومك هذه القصة لا لذاتها ، بل لتكون دليلاً على كمال قدرة الله عزّ وجل ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

كَمَلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ التَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ .

صحيح البخاري

مرتبها في رأي معظم العلماء صديقة ، ومرتبة الصديقية تأتي بعد مرتبة النبوة ، رسالة ، فنبوة ، فصديقية ، فكانت هذه المرأة صديقة .

مبالغة مريم عليها السلام في خلوتها للعبادة :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ والمقصود ليس اسم مريم ، أي واذكر في الكتاب قصة مريم ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ .. معنى نبذت الشيء أي ألقته لقلّة شأنه ، ولكن إذا انتبذت هذه الصديقة ، أي ابتعدت عن قومها لتعبد ربها ، أي لها خلوتها مع الله عزّ وجل ﴿ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ والجلوة من الخلوة ، والموارد من الأوراد ، ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة ، " يا موسى أتحب أن أكون معك ؟ فصعق هذا النبي الكريم ، قال : وكيف ذلك يا رب ؟ قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني " ، والأنبياء جميعاً لهم خلواتهم مع الله عزّ وجل ، والمؤمنون يجب أن تكون لهم خلواتهم مع الله عزّ وجل ، فهذه الصديقة الكريمة ﴿ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا

شَرْقِيًّا ﴿ أَي ابْتَعَدتْ جِهَةَ الْمَشْرِقِ لِتَخْلُو لِنَفْسِهَا ، وَتَعْبُدَ رَبَّهَا ، وَتَتَّصِلَ بِهِ ، وَتُقْبَلَ عَلَيْهِ ، فَتَسْمُو نَفْسَهَا وَتَسْعَدَ رُوحَهَا بِهَذَا اللَّقَاءِ وَهَذِهِ الْخُلُوةُ .

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ .. يبدو أنها أرادت أن تُبَالِغَ فِي خُلُوتِهَا ، فَجَعَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْمِهَا حِجَابًا يَمْنَعُ دَخُولَهُمْ إِلَيْهَا ، مِنْ أَجْلِ ضَمَانِ هَذِهِ الْوَجْهَةِ ، وَتِلْكَ الْعِبَادَةُ ، وَهَذِهِ الصَّبُوةُ .

إرسال الله عز وجل جبريل إلى مريم عليها السلام :

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ تَصَوَّرَ امْرَأَةً طَاهِرَةً ، مَلَائِكِيَّةً ، عَفِيفَةً ، حَصَانًا ، حَيِّيَّةً ، اتَّخَذَتْ لَهَا مَكَانًا بَعِيدًا عَنْ قَوْمِهَا ، وَأَحْكَمَتِ الْحِجَابَ ، فَإِذَا أَمَامَهَا رَجُلٌ وَسِيمٌ الطَّلَعَةُ قَدْ خَرَقَ عَلَيْهَا الْحِجَابَ ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ .. مِنْ أَوْجِهَةِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ (رُوحَنَا) هُوَ سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، جِبْرِيلُ كَمَا تَرَوِي الْكُتُبُ لَهُ جِسْمٌ ضَخْمٌ جَدًّا ، قَدْ يَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحْمَةً بِهَا ، وَمِنْ بَابِ اللَّطْفِ الْإِلَهِيِّ ، جَعَلَ هَذَا الْمَلِكَ الْعَظِيمَ جَعَلَهُ عَلَى شَكْلِ إِنْسَانٍ سِوَى كَامِلِ الْخَلْقَةِ ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ وَإِنَّمَا نُسِبُ هَذَا الرُّوحَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نِسْبَةً تَكْرِيمًا ، هَذَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ الَّذِي يُعَدُّ رَئِيسَ الْمَلَائِكَةِ سَيِّدَنَا جِبْرِيلُ نُسِبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَأَنَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا عَبَادِي : لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ، قَلْ لِعِبَادِي ، هَذِهِ نِسْبَةٌ تَكْرِيمٍ وَتَشْرِيفٍ .

تمثل جبريل عليه السلام بصفة البشر واستعادة مريم بالله منه :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .. لو أنها رآته كما هو عليه ، كحقيقته لَصُعِبَتْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحْمَةً بِهَا ، وَإِكْرَامًا لَهَا ، وَلِطْفًا بِبَشَرِيَّتِهَا ، وَإِمَّاكَانَاتِهَا ، جَعَلَ هَذَا الْمَلِكَ الْعَظِيمَ يَتَمَثَّلُ عَلَى شَكْلِ إِنْسَانٍ سِوَى قَرِيبٍ ، وَلَكِنْ لَطَهَّرَتْهَا ، وَعَقَّتْهَا ، وَحَيَّأَهَا ، وَفُؤِّدَسِيَّتَهَا ، وَمَلَائِكِيَّتَهَا ، هَالِهَا أَنْ يَخْتَرِقَ حِجَابَهَا شَابٌّ وَسِيمٌ ، قَالَتْ : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴾ .. أَيُ إِن كُنْتُ تَقِيًّا ، إِنْ كُنْتُ أَيُّهَا الرَّجُلُ تَتَّقِي اللَّهَ ، وَتَخْشَاهُ ، وَتَخَافُ مِنْهُ فَابْتَعِدْ عَنِّي ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ ﴾ أَنَا عُذْتُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَنْ تَتَلَانِي بِسُوءٍ ، فَإِنْ كُنْتُ يَا هَذَا تَقِيًّا تَخْشَى اللَّهَ ، وَتَخْشَى عِقَابَهُ ، وَتَخْشَى أَنْ تَتَعَدَى حُدُودَهُ ، فَاتَّقِ اللَّهَ ، وَابْتَعِدْ عَنِّي ، وَهَذَا شَأْنُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ ، إِنْ الْعَقَّةُ أَبْرَزَ مَا يُمَيِّزُ الْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ .. ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴾ .

طمأنة جبريل مريم بأنه رسول من الله وتعجب مريم مما قاله :

قال لها هذا الرجل ، أو هذا الشاب : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أنا رسول من عند الله .. ﴿ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ .. غلاماً زكياً ، زكي النفس ، طاهر النفس ، غلاماً متميزاً ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ اطمأنت ، ليس بشراً ، إنه ملك ، لا ينوي السوء ، لا ينوي أن يعتدي عليها ، لا ينوي أن ينالها بسوء ، إنما هو رسول من عند الله ليهب لها غلاماً زكياً .

لكنها عَجِبَتْ ، وحق لها أن تعجب ، إنها امرأة عذراء ، لم يسبق لها الزواج ، وفضلاً عن ذلك لم تكن امرأة بغيّاً ، والمرأة البغي هي التي تبتغي الرجال ، تلاحقهم هي من أجل أن تكسب مالاً عن طريق هذه العلاقة المحرّمة ، وجمع البغي بغايا ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ لست متزوجة ، ولست بغيّاً .

أدب القرآن في اختيار الكلمات : ولم يمسنني :

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ .. وكلمة (يمسنني) من كنايات الله سبحانه وتعالى ، من الكنايات اللطيفة ..

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)

سورة النساء

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)

سورة المؤمنون

حينما يُعَبِّرُ الله عز وجل عن حالة تقع بين المرأة والرجل يعبر عن هذه الحالة باللفظ

الكنايات .

ليس على الله شيء عسير :

كذلك قالت هذه الصديقة : ﴿ **أَنْى يَكُونُ لِي غَلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** * **قَالَ كَذَلِكَ** ﴾ وأنت على هذه الحالة ، وأنت امرأة عذراء ، لم يسبق لك الزواج ، وأنت على هذه الطهارة ، وعلى حالة البعد عن الأزواج والرجال سيكون لك هذا الغلام .. ﴿ **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** ﴾ .

عن أبي ذر الغفاري عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أَنَّهُ قَالَ : يَا عِبَادِي ، ، إِيَّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلَا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِيَّ فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ ، كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ . وفي رواية : إِيَّي حَرَمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي ، فَلَا تَظَالَمُوا .

صحيح مسلم

ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام .

﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ (82)

سورة يس

﴿ **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** ﴾ هكذا قال الله عز وجل ، يستوي عند الله عظيم الأشياء وحقيرها ، خلق الجبال كخلق النمل ، كلاهما في الخلق سيان .. ﴿ **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ** ﴾ .

الأسباب لا تخلق النتائج :

كنت من قبل قد ذكرت لكم أن الإنسان أحياناً يتوهم أن الأسباب هي التي تخلق النتائج ، وهذا أحد أنواع الشرك ، وقد سمي شرك الأسباب ، لئلا يقع الإنسان في شرك الأسباب ، يجب أن يعلم أن ربَّ الأرباب في أية لحظة يُعْطِلُ هذه الأسباب ، أو يلغي هذه الأسباب ،

يعطلها حينما توجد ، ولا تُحَقَّقُ النتائج ، من هنا كان فلانٌ وفلانَةٌ زوجين شابين ، ومع ذلك لم ينجبا ولداً ، هنا تعطلت الأسباب ، وكالسيدة حواء كانت من دون أم ، وكسيدنا عيسى كان من دون أب ، هنا تعطلت الأسباب ، في حالة العُفْرِ تعطلت الأسباب ، أما في حالة السيِّدة حواء وسيدنا عيسى فقد أُلغيت الأسباب إلغاءً ، تعطلت ، أو أُلغيت ، إذاً النتيجة لا يخلقها السبب ، ولكن السبب يرافق النتيجة ، هذا هو التوحيد ، فالأشياء تقع - كما يقول علماء التوحيد - عندها لا بها ، أي عند إرادة الله عزَّ وجل لا بالأسباب ، لذلك نازَّ مضرمةً أرادوا بها إحراق سيدنا إبراهيم ، فقال الله عزَّ وجل :

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69)

سورة الأنبياء

عيسى عليه السلام آية من آيات الله :

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ .. كما قال الإمام علي كرم الله وجهه : " عَلِمَ ما كان ، وَعَلِمَ ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون " ، هذا الأمر مُنتَهٍ ، من قضاء الله ، سَتُنَجِبُ هذه المرأة الطاهرة الصديقة غلاماً من دون أب ، ليكون هذا الغلام آيةً على كمال قدرة الله عزَّ وجل ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ .

كل ما يقع هو عينُ الرحمة والحكمة :

لذلك الشيء الذي وقع لابدَّ من أن يقع ، ومتى وقع فهناك حكمةٌ بالغةٌ ندركها أو لا ندركها ، هكذا التوحيد ، الشيء الذي وقع لابدَّ من أن يقع ، ولو لم يقع لكان عدم وقوعه نقصاً في حكمة الله ، ونقصاً في علمه ، وحاشا لله أن تكون حكمته ناقصةً ، وأن يكون علمه ناقصاً ، كمال علمه ، وكمال حكمته يقتضي أن يقع هذا الشيء الذي وقع ، لذلك قيل : الإيمانُ بالقدرِ يذهبُ الهمَّ والحزنَ .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَ ما بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيْمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ ما أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَ ما أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ .

السلسلة الصحيحة ، خلاصة حكم المحدث : إسناده حسن رجاله ثقات ، التخريج : أخرجه أحمد (27490) واللفظ له ، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (246)، والطبراني في ((مسند الشاميين))

وانتهى الأمر ، ما دام الشيء قد وقع فهناك حكمة بالغة ، هذه هي العقيدة الصحيحة.

﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ .. أي أن الذي يقع عين الرحمة ، وعين الحكمة ، وعين العلم ، وعين القدرة ، وعين العدل ، أي شيء وقع ، قد يقع الشيء ، ويتمنى الناس أنه لو لم يقع ، وهذا نقص في علمهم ، ونقص في توحيدهم ، لكن الذي يقع إن لم يكن موافقاً للشرع فينبغي أن يسعى الناس لإزالته ، لو وقع فساداً ماذا نقول ؟ ماذا يقضي الإيمان بالقضاء والقدر ؟ لو وقع فساداً في بيت من البيوت هل يقول الأب : هذا فساداً وقع بتقدير الله عز وجل ولا حيلة لي مع الأقدار أم أنه يُشَمَّر ليزيل هذا الفساد ؟ لا يعني الإيمان بالقضاء والقدر أن يقف الإنسان المؤمن مكتوف اليدين ، هذا الفهم فهم سقيم ، لا يتناسب مع الإيمان الصحيح ، أنت مأمور أن تقيم الأشياء على الطريق الصحيح ، أنت مأمور أن تقيم الأمور وفق ميزان صحيح ، إذا وقعت على غير المراد فاعلم علم اليقين أنه لا بد من أن تقع ، وعليك مهمة إصلاحها ، فعمل في وقوعها امتحاناً لك ، ولعل في وقوعها جلباً للخير ، وأنت في أمس الحاجة إليه . ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ لذلك عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

العيني : العلم الهيب : خلاصة حكم المحدث : إسناده جيد

وكان عليه الصلاة والسلام يقول : عن صهيب بن سنان الرومي :

عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمْدَ اللَّهِ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ إِلَّا الْمُؤْمِنُ .

السلسلة الصحيحة : خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح على شرط مسلم

هكذا الإيمان ، وقعت واقعة أنت كمؤمن يجب أن تُزِيلها بدافع إيمانك ، تتنابك مشاعر دقيقة جداً ترضى بها لأن الله أرادها ، والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً وقع ، وإذا وقع الشيء أراد الله ، هذه علاقة ترابطية بين إرادة الله وبين حدوث الأشياء ، كل شيء وقع أراد الله ، وكل شيء أراد الله وقع .. أولاً : استسلام لقضاء الله وقدره ، ثانياً : أنت كإنسان مكلف ؛ مكلف بالأمانة ، مكلف أن تقيم الأمور على شكل صحيح ، أنت مكلف أن تستقيم على أمر الله ، أن تأمر بالمعروف ، وأن تنهى عن المنكر ، لأنك مكلف هكذا يجب أن تعمل لإزالة هذا الشيء الذي وقع بأمر الله ، إنه امتحان لك ، إنه كشف لحقيقتك .

ابتعاد مريم عن قومها وتمنيها الموت خوفاً من كلام الناس بعد أن حملت بعبسى

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ .. تروي بعض الكُتُب أن هذا الرسول الكريم والملك العظيم نَفَخَ في كُمِّهَا فحملت بسلامها ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ من شدة خجلها ، وشدة قلقها ، وشدة حيائها ، وخوفها على سمعتها ، ولأن الفتاة سمعتها في عَفَّتِهَا ، رأسالها كُلُّهُ في عفتها ، كيف وقد حملت وليست متزوجة ؟ وليست بَغِيًّا ؟ ماذا يقول الناس عنها ؟ كيف تجيبهم ؟ كيف تجابهم ؟ كيف تعتذر لهم ؟ هذه الهموم تعاضمت عليها ، حملتها على أن تبتعد عن الناس ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ معنى قصياً أي بعيداً ، إلى أن جاءها المخاض ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ﴾ معنى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ﴾ أي فآلجأها المخاض ، شدة الألم ، آلام المخاض دفعتها إلى جذع نخلة ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ .. هذه طهارتها ، وهذه عفتها ، وخوفها على سمعتها ، خوفها من كلام الناس ، هي طاهرة ، والناس قد لا يصدّقون طهارتها ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ لئيتني لم أكن شيئاً مذكوراً ، لئيتني كنت خِرْقَةً مُلْقَاءَةً في الطريق ، لئيتني كنت عوداً ، شيئاً لا يعني الناس ، لا يلتفتون إليه ، لا يأبهون له ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ خافت على سمعتها ، وخافت أن يقع الناس بالبُهتان حينما يتهمونها بالسوء ، خافت مرتين ، مرةً أن تسبب للناس الوقوع في المعاصي ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

إن قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة .

رواه الطبراني والبيهقي وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف

أن تتهم امرأة شريفة ، أن تتهم امرأة حسيبة ، امرأة عفيفة ، امرأة طاهرة ، أن تتهمها بالزنا ، والأمر يجري هكذا ، إن الله سبحانه وتعالى يُبطل بهذا الاتهام عمل مائة سنة ، والحكم الشرعي أن يُجلد هذا الذي يتهم المرأة العفيفة ثمانين جلدة ، وأن يسقط حَقُّهُ المدني في الإدلاء بالشهادة ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُ شَهَادَةً أَبَدًا ، فالإنسان قبل أن يخوض في أعراض الناس ، وقبل أن ينقل الأخبار غير الموثوقة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)

سورة الحجرات

﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ ألمها الشديد ، وخوفها الشديد من الفضيحة ، ومن أن تلوك الناس سمعتها بسوء ، ومن أن تواجه الناس بتهمة الزنا كما يتوهمون .

وحي الله لمريم بأن ابنها سيكون ذا شأن عظيم :

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ .. جاءها الملك مرة ثانية ، وقد تروي بعض الكتب أنها كانت في مكان مرتفع ، جاءها الملك مرة ثانية ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي ﴾ لا تحزني ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ معنى سرياً أي هذا الغلام الذي ستلدينه سيكون له شأنٌ عظيم ، سيكون له ذكرٌ كريم في الآفاق ، إنه إنسانٌ يَهْبُ السعادة لمن ولّده فلا تحزني ﴿ أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ سرّة القوم أي عظماء القوم ، وجهاء القوم ، فلانٌ من سرّة القوم من عظمائهم ﴿ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ أي سيكون إنساناً عظيماً ، سيكون له شأنٌ كبير ، وفي بعض التفاسير أنّ الله سبحانه وتعالى إكراماً لها ، كانت تحتها ساقية ماءٍ جافة ، فأجرى لها الماء ، والقرآن ذو وجوه .

الأخذ بالأسباب :

﴿ وَهَرِي إِيَّاكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ﴾ .. قال لي بعضهم : ذهبت إلى بلاد الحجاز ورأيت نخلةً فحاولت أن أهزها فلم أستطع أن أحرك منها شيئاً ، قال : فكيف قال الله عزّ وجل : ﴿ وَهَرِي إِيَّاكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ﴾ ؟ بعضهم قال : إن هذا من باب الأخذ بالأسباب ، أي كيف أن الرزق محتوم ، ومقسوم ، وموزون ، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أمرنا بالأخذ بالأسباب ، وبعضهم قال : إن الله سبحانه وتعالى ليّن لها هذا الجذع فاهتز لتسقط التمرات أمامها فتأكلها ﴿ وَهَرِي إِيَّاكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ .

فوائد التمر :

وفي بعض البحوث العلمية عن التمر وعن الرطب ، أن هذه المادة يوجد فيها ثمان وأربعون مادةً غذائية ، التمر فيه ثمان وأربعون مادةً غذائية ، وأن التمر فيه مادةً مضادةً للنزيف ، وفيه مادةً مُلَيِّنَةً للأمعاء ، وفيه مادةً حاتّةً على الطلق ، وفيه مادةً مغذيةً تتطلق من الفم إلى الدم في عشرين دقيقة ، لذلك لم يكن عبثاً أن يذكر الله سبحانه وتعالى المَخَاض ، ويذكر مع المَخَاض النخلة ، لأن التمر هو الغذاء الأمثل للواتي يَضَعْنَ ، أو قبيل الوضع ، فيه مادة ملينة من أجل تفريغ الأمعاء لتكون الولادة أسهل ، وفيه مادة تمنع النزيف ، وفيه مادة تحث عضلات الرحم على التقلُّص ، وفيه غذاء من أعلى مستوى ينتقل إلى الدم في أقصر وقتٍ أي خلال عشرين دقيقة .

الراحة التامة للحامل بقوله تعالى : كَلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا :

﴿ تَسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا * فَكَلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ .. أي نامي ، فسرها بعضهم

أي نامي ، كلي ، واشربي ، ونامي .

نم فالمخاوف كلهنّ أمان

وإذا العناية لاحظتك جفونها

* * *

وأنت الذي لم تزل محسنا

أتيناك بالفقر يا ذا الغنى

يدوم الذي منك عودتنا

وعودتنا كل فضل عسى

فعن حمل زادي أنا في غنى

إذا كنت في كل حال معي

* * *

﴿ فَكَلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ .

صوم مريم عن الكلام أمر من الله عز وجل لها :

﴿ فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ النَّبَشْرِ أَحَدًا ﴾ لا تخافي ، لا تقلقي ، لا تقلقي على سُمْعَتِكَ ، لا

تخافي من مواجهة الناس ﴿ فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ النَّبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ ..

صومي عن الكلام ، دعي هذا لنا ، نحن نُبْرِتُكَ ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ

الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ قالوا : هذا في شرع من كان قبلنا ، أما في الإسلام فالصيام عن الكلام ليس

مقبولاً ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام شرع لنا أن نصوم عن الكلام السيئ ، فعن أبي هريرة

قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

الصيامُ جُنَّةٌ ، فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفُثُ ولا يجهل ، فإن امرؤ شاتمته أو

قاتلته فليقلن إني صائمٌ .

صحيح البخاري

أما أن تصوم مُطلقاً ، ليس في الشرع الإسلامي ما يبيح لك ذلك ، لكن هذا كان في

شرع من كان قبلنا ﴿ فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ النَّبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ

إِنْسِيًّا ﴾ بعض العلماء قالوا : هذا الكلام تقوله إشارة ، أشيري لهم أنك صائمة ، ولا تكلمي أحداً

لأي سبب .

مجيء مريم عليها السلام قومها بالمولود وإنكار قومها عليها ولادتها :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا ﴾..جاءت قومها ، وهي العذراء البتول ، والمرأة الحصان ، جاءت قومها تحمل على يديها وليداً ، وهذه هي المشكلة ، هنا العقدة ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا ﴾ وقد هالهم الأمر ، وأدهشهم ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ أي شيئاً عظيماً ، ما من سقوطٍ أعظم عند المرأة من أن تأتي بـغلامٍ ، وهي غير متزوجة ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ نَعْرِفُكَ قَدِيْسَةً ، نَعْرِفُكَ عَفِيْفَةً ، نَعْرِفُكَ طَاهِرَةً ، نَعْرِفُكَ مَتَعَبِدَةً ، كيف كان هذا ؟ أنتِ أُخْتُ لِهَارُونَ ، وكان سيدنا هارون مضرب المثل ..﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيّاً ﴾ .

إحالة مريم الكلام إلى عيسى عليه السلام :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾.. قال بعض العلماء : إن استخفافها بهم حينما أشارت إليه ، إن استخفافها بهم كان أشد عليهم من اتهامها عندهم ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ أتسخرين منا ؟ أهذا يتكلم ؟ أهذا يُدافع عنك ؟

كلام عيسى عليه السلام في المهدي بالعبودية لله عز وجل وتبرئة والدته :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾.. تكلم هذا الطفل الذي في المهدي ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ لِمَ اختار هذه الكلمة : إنني عبد له ؟ وكان الله عز وجل يعلم ما سيكون ، يعلم أن هناك من سيجعله إلهاً ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ معنى آتاني جاءت بالماضي لأن أفعال الله عز وجل يُعَبَّر عنها بالماضي ولو لم تقع ، لأن وقوعها مُحَقَّقٌ ، هذه حكمة قوله : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ قال تعالى :

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى

كَلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117)

سورة المائدة

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ تكلم هذا الغلام الصغير ، تكلم هذا الطفل الرضيع ، وبراً أمه .

الدين كله اتصالاً بالخالق وإحساناً للمخلوق :

﴿ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ .. هكذا المؤمن ، هو نبي عظيم ، ولكن إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ﴿ مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ مصدر كل خير ، أينما جلس يُقَدِّمُ الخير للناس ، بعلمه ، ومعروفه ، ونصائحه ، ودعوته .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ هل أنت مبارك أيها الأخ الكريم ؟ أنت مبارك ؟ هذه القصة لنا ، قس نفسك ، هل يُثني الناس عليك أينما خللت وحيثما ارتحلت ؟ هل يتمنى الناس أن يلتقوا بك أم يتمنون أن يبتعدوا عنك ؟ هل يتقيك الناس مخافة شريك أم يتمنى الناس أن يلتقوا بك ؟ ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ هكذا حال المؤمن في سره وجهره ، في خلوته وجلوته ، في حله وترحاله ، في قوته وضعفه ، في كل أحواله ، إنه في خدمة الخلق ، إنه مُحِبٌّ للخلق ، وفي خدمة الخلق ، مبارك ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ قد تجد إنساناً مستقيماً في بلده ، فإذا سافر حَزَقَ الاستقامة ، هناك إنسان مستقيم في حالة الفقر ، فإذا اغتنى عتا وطغى ، هناك إنسان مستقيم في حالة القهر ، فإذا صَحَّ وقوي بغى وطغى ، ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ هذا هو الدين كله ، اتصالاً بالخالق ، وإحساناً للمخلوق ، ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ أنت عاهدت الله عزَّ وجل على أن تكون معه في كل أحوالك ..

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41)

سورة الأحزاب

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)

سورة الفرقان

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)

سورة آل عمران

﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ جعلني باراً بوالدتي ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ كيف اقترن عند الله عزَّ وجل أن يكون المرءُ جباراً شقيماً ؟ من لوازم كونه جباراً أن يكون شقيماً ، كل جبارٍ شقيٌّ .

حياة المؤمن كُلُّهَا سلام :

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾..
حياة المؤمن كُلُّهَا سلام ، طبعاً الله سبحانه وتعالى طمأنه ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ عندها قال الله عزَّ وجل : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ هذه قصته ، وهذه حقيقته ، وهذا الذي وقع ولم يقع سوى هذا .

حقيقة عيسى عليه السلام :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾.. من معاني الحق ذِكْرُ الشيء كما وقع ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ اليهود اتهموها بالزنا ، وقالوا عن يوسف النجار ، اتهموها بهذا الرجل الذي كان معها ، وبعضهم قال: إنه ابن الله ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾.. ما كان ، أشدُّ أداة ، أشدُّ صيغة من صِيغِ النفي في القرآن الكريم هذه الصيغة .. ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ ليس من شأنه ، إنه إلهٌ عظيم .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)

سورة الإخلاص

ليس من شأنه أن يكون له ولد ليستعين به ، إنه فردٌ صمد ، ليس من شأنه أن يكون له ولدٌ ليخلدَ ذكره ، إنه الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، إنه أبدي سَرْمَدِي ، لِمَ الولد ؟ نحن نبتغي الولد ليكون خُلُقاً لنا ، لنستعين به في أيام ضعفنا ، الله سبحانه وتعالى قوي عزيز ، حي قيوم ، فردٌ صمد ، ليس من شأنه أن يكون له ولد ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ هذا الميلاد المُعْجِز جعله الله دليلاً على كمال قدرته ، فجاء الناس فأشركوا بالله عزَّ وجل ، وكفروا به إذ جعلوا عيسى ابناً له ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾ :

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43)

سورة الإسراء

﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ هذه القصة أيضاً قصة ثانية في سورة مريم تبين كمال قدرة الله تعالى ، وتبين أن الأشياء تقع بقدره الله ، وبمشيئة الله ، وأن الأسباب ليست هي الخالقة ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى قد يُعْطِلُ الأسباب في حالة العُقْرِ ، وقد يلغي الأسباب في حالة هذا الميلاد المُعجز لسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

شيء آخر ؛ تبين هذه القصة شرف المرأة المؤمنة ، خوفها على سمعتها ، حزنها الشديد في أن تواجه الناس بتهمة هي بريئة منها ، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام شدد على موضوع قذف المحصنة فقال :

إن قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة.

رواه الطبراني والبخاري وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف

وأن الإنسان مؤاخذاً بما يقول ..

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)

سورة الإسراء

أيها الإخوة الأكارم ؛ اقرؤوا هذه القصة ، واحفظوها ، وعلموها أهلكم وبناتكم ليعرفوا شرف المرأة المؤمنة ، وأن هذه الصديقة العظيمة ، كيف أن الله عز وجل وصفها بالصفات التي يجب أن تتحلى بها كل امرأة مؤمنة .

والحمد لله رب العالمين